أُسلوب السُّخرية في قصيدة(تنويمة الجياع) للجواهري
دراسة تحليلية ، ودلالية

الأستاذ المساعد الدكتور
علي رحيم هادي الحلو
عميد كلية الشريعة
الإسلامية /جامعة أهل البيت (ع)

أسلوب السُّخرية في قصيدة(تنويمة الجياع) للجواهري دراسة تحليلية ،ودلالية

الأستاذ المساعد الدكتور
علي رحيم هادي الحلو
عميد كلية الشريعة الإسلامية
جامعة أهل البيت (ع)

مـقدمــة

قد تتكرر العبقرية ، ولكن بعد طول انتظار ، فانظر كم قرنًا بين المتنبي والجواهري ؟ وكم على الأمة أن تترقّب مولودًا يثلثهما ؟

هكذا هي الأمم الحيّة ، ولا سيّما عندما تتطلع في سماوات الشعر ، ومراتب الإبداع الأدبي ، عاد المتنبي في الجواهري ، شموخًا ، وحبًّا ، وجزالة ، وصورًا حيّةً ناطقة من الحياة ، ورفضًا للظلم ، وحربًا على الطغاة وتطلعًا الى الغد المشرق .رقد الجواهري في قبره ، لكنه يعيش معنا كبرياءً وإباءً ، عنفوانًا طاغيًا ، وحلاوةً في التعبير ، وسلاسة ما بعدها سلاسة ، فاستحقّ المجد كل المجد ، إنّهُ الخلود الذي ما بعده خلود .

لقد نظم الجواهري في موضوعات شتّى ، وأطال فيما نظم ، فكان من أغزر الشعراء عطاءً . وقصائده على طولها تجدُها عرائسَ البلاغة العربية ، فلا إسفاف ، ولا نزول عن قمة الإبداع .

وأصبح الجواهري قِمةً للشعر ، وسيبقى ، وقد صدق من قال : لم يولد شاعر بعد المتنبي إلا الجواهري ، لأنه لا يَسَعُهُ الكَلِم ، ولا يحدُّه زمان ، ولا مكان ؛ لأنه كما قال المرحوم الدكتور طه حسين : هذا شاعر العرب الأكبر ، الآن بدأتُ استمع الشعرَ الشعر ، ساعة إلقاء الجواهري قصيدته في الذكرى الألفية لوفاة المعرّي ، حيث بلغ قوله :

لحرية الفكر تاريخٌ يحدثُنـا بأنّ ألفَ مسيحٍ دونها صُلِبَـــا

وصدَق الدكتور المرحوم علي جواد الطاهر إذ وصفَه بقوله : (الجواهري هو الجواهري ، وكفى) [1] .

لقد قَلَّبْتُ قصائدَ الجواهري لعلّي أختار لؤلؤةً من بينها ، فأعياني التمييز بين الدُّرر ، وكلُّ واحدةٍ منها تتباهى على أختها ، فلا تَمِيزُها ، ووَجدْتُ منها ما ارتبط بمناسبة ، ومنها ما ارتبط عفوًا بما رآه الجواهري قضيةً ، أو ليكون قضِيَّةً ، أو موضوعًا لدى الشاعر .

ولما كان البحث الأكاديمي يُلزِمُنا أن نُحدّد موضوعًا ، فقد وقع الاختيار على رائعة الشاعر (تنويمة الجياع). ولأجلِ الدقة في التحديد سأتناول أسلوب السخرية في

هذه القصيدة ، ومدى مساهمة الشاعر من خلال قصيدته هذه في إيصال أفكاره إلى المتلقي ، وأثر ذلك فيه .

البحث مقسّم على تمهيد بيّنت فيه أن الجواهري اتخذ الإنسان وهمومه قضيته الأولى ،ولاسيّما قضية المحرومين من شعبه ،وتناولت مقدمتيه النثريتين اللّتين قدّم بهما لدواوينه .

وتلت التمهيد ثلاثة مباحث ،عرض الأول منها جوانب عن الشاعر وقصيدته . أما المبحث الثاني فعرض أسلوب القصيدة ، أما المبحث الثالث فعرض أفكار القصيدة . ثم جاءت النتائج فالمراجع .

التمهيد

قد يختلف الدارسون في الجواهري إنسانًا ، أو شاعرًا ، في هذا الموقف أو ذاك ، ولكنهم يُجمعون أنهُ قضيةٌ كُبرى ، **وأنّ** شعرهُ قضية الشعر الكبرى ، وأنهُ بحرٌ زاخر من العطاء الفكري الثّر الذي سيبقى مدوّيًا .

لقد ترددت قصائدهُ على الألسن ، وتناولتها الأقلام ، لأنه اختط لنفسهِ طريقًا جاعلاً فيه الإنسان قضيته .يقول ماجد السامرائي : (وإذا كانت حرية الفكر من أخصّ ما يشغل الجواهري الشاعر من قضايا ؛ فذلِك لأنه كان قد جعل الإنسان فيه أساسًا في مواجهة واقعهُ،ومن خلال قضية حرية الفكر كان يكتب شعرًا،يحرر فيه المكبوت الفردي والاجتماعي،وينخرط في تاريخ عصره ،واضعًا هذا التاريخ موضع مواجهة ،وتساؤل مستمرين) [٢] .

وقد وُهِبَ الجواهري مَلَكة الإبداع من خيال وأحاسيس وخزين ألفاظ ، ما لم يتهيأ لسواه ، فأَحْكَمْ ذلك بما وطّن نفسه عليه من صقلٍ وتثقيف ، ليكون الألق على جبين الشعر العربي ، وليكون تاريخًا ، وهُوِيّة ، وليكون أعاصير ، وليكون فكرًا خلاقًا ، ونورًا من دونما انطفاء :

(أبا فراتٍ ، ضميرَ الشعب ، أنتَ لنا تاريخُنا ، الأمسُ واليومُ الرضيُّ وَغَدُ)[٣]

وكما قال الدكتور المرحوم إبراهيم السامرائي :

(يا واهبَ الحرفِ ما لم يمتلك مِقةً ومُطلعَ الحرفِ من أنماطِهِ سَرَقُ
أنطقته وهو عَيٌّ في سواك بما دعوتَه فأتاك الأَمرُ يَتّفقُ) [٤]

يقول ميري البصري: (الجواهري عملاق الشعر العربي الحديث،عبّاسيّ الديباجة،طويل النفس ،يرصّ كلماته وأشطره رصًّا،فتجيء كالصرح الممرّد ،أو الطود الشامخ،ويكسو معانيه أثوابًا مؤنقة من جزل الألفاظ)[٥].

وفضلا عن عطاء الجواهري الشعري فله مقدمتان نثريتان قدّم بهما لدواوينه الشعرية ،

الأولى : عنوانها (على قارعة الطريق) ،صَدَّرَ بها أول ديوان له ، وظلت في طبعاته اللاحقة ، وكذا صدَّرَ بها مختاراته .

الثانية : عُنوانها (بدر) ، وهي كلمة قدّمَها من إذاعة بغداد ، لمناسبة الذكرى الرابعة لوفاة بدر شاكر السياب .

يقول ماجد السامرائي : (في الوثيقة الأولى (على طارقة الطريق) شهادة على الذات والواقع ، فالشاعر يكلّم الذات ، والذات ترتدّ إلى الواقع في حركةٍ مدوّمةٍ مُحمّلةٍ فيها تحديد لمسار اختيار ، ونابضة بموقف يجلو صفحته دون خشية وارتياب .

وأما في الوثيقة الثانية فإن ذات الشاعر تُكَلِّمُ نظيرها الشعري بلغة مفتوحة على الحياة ، وشِعر الحياة)[٦].

الذي أذهب إليه في هاتين المُقدِّمتين النثريتين أنهما من أصدق ما صور فيه الشاعر مشاعره ، لكنه كان ناثرًا لا شاعرًا،وأفصح بهما عن أفكاره بصراحة ودقة وصدق ، وهما قد ترتقيان مرتبةً أعلى مما بثّه من شعور، أو آراء في قصائده.

المـبـحـث الأول

مدخل إلى عالم الشاعر ،وقصيدته

أ ـ الشاعر :

إنّ من يلج عالم الجواهري من أيِّ جانب شاء عليه أن تكون له أوليات في علومٍ شتى ،نحو :علم الاجتماع ، وعلم الأديان ،وعلم النفس ، وعلوم اللغة ،وغيرها من العلوم ؛ لأن الشاعر لم يكن إنسانًا اعتياديًّا ،فقد امتلك موهبةً وإلهامًا ، وقد صرح هو بذلك في مذكراته ، فقد عاش بيئةً متناقضة في النجف،وكذا في العراق،بل قل في حياته كلها،يقول:(كانت سنوات حياتي تختصر قسرًا إلى شهور بل أسابيع ،وقد حملت إلى حياة سنواتي اللاحقة تبعات كل تلك الفترة التي سُرِقَت مني ، حملتها بكل تناقضاتها ومباذلها ،وعُقَدِها ،ومفارقاتها ،حيث انعكست على حياتي وشعري ،بل وعلى تعاملي مع الناس ، ومَن معي[٧].

ويقول عن نشأته ،وعن موهبته التي فاقت المواهب ،ومعرفة الآخرين بذلك : (لقد بدأتُ في مجالس النجف مُستمعًا صغيرًا مسحورًا بإيقاع الشعر وصوره ،ثم أصبحت وأنا أتصاعد شيئاً فشيئاً ممن يشبه المثل به ، والتحدث عنه في هذا المجال ،وأنا ما أزال في عنفوان الصبا ، فحيثما ذهبت كان أترابي ،وحتى من درست عليهم يتسَلَّون باختبار حافظتي الشعرية ،وكانوا يتلون علي أربعة أو خمسة ،بل حتى سبعة أبيات وعليّ أن أعيدها على الفور،فأعيدها فعلاً ولمرة واحدة ، ويصل الرهان فيما بينهم بهذا الصدد حدًّا بعيدًا ،فقد تقدم صديق عزيز عليَّ ، ومن صميم مشابك العروق العائلية في الأسرة ،وهو السيد(علي الجصاني) ،ووضع أمام عيني ليرة رشادية ذهبية ،كنت أحلم بأمثالها،وقال:إنها لك إذا حفظت كل هذه الأبيات في يوم واحد ، وبين إغراء الليرة الذهبية ،وإغراء التحدي أخذت حزمة الورق تلك ،وفيها أكثر من أربعمئة بيت من الشعر أبيح لي فيها عشرون غلطة ،البيت بكاملة غلطة ،والكلمة غلطة ،وعدت إلى المجلس في اليوم التالي ،وبدأت أتلوها عن ظهر قلب ،وأنا أرى العيون والوجوه من حولي مدهوشة، وقد كانت غلطاتي المفروضة عليّ دون ذلك ،وحين انتهيت كانت الليرة الذهبية في جيبي، وهي تكاد أن تكون كفاف عيش لشهر واحد لمن أراد الكفاف ،وإلى

جانبها وليمة فخمة لشلة كبيرة من أترابي . في نهاية المطاف أدرك والدي استحالة ما أراد منعي عنه .وأريد أن أشير إلى أنّ هذا الوالد المتزمت بدلا من أن يصوغ ولده كما أراد ، أخذ يتأثر به)[٨].

وعلى الرغم من الصراع النفسي الذي عاشه الشاعر في بيئة متناقضة ،كان تَوّاقًا إلى التمرد متطلعا إلى التغيير ، مهما كلفه ذلك من خسائر ،وقد حَصَلَت له كثيرًا [٩] ،إزاء مغريات لا تُقاوَم ـ قد لا يقوى على رفضها سواه ـ ،يقابلها جوع ،وسجن ،أو تشريد وغربة..لكنه الجواهري الذي خاض غمار ذلك كلّه منتصرًا ؛ لأنه آمن بخط النور ،والحرية ،وحقّ الإنسان في العيش الكريم ،يقول : (من حقي ـ وقد كُتِب عليَّ ـ أن أكون أكثرَ من أي شاعر معاصر عشته وعاشني انشدادًا بالجماهير العربية ،ولا سيما بالطلائع الواعية منها ، وأشدَّ مشاركة في مطامحهم ومعاناتهم)[١٠].

ولما كان لنشأة الشاعر الأولى أثرٌ بالغٌ في بنائه الأدبي ،والنفسي ـ من الجوانب كافة ـ فقد كان من بين تلك المؤثرات فيه ابنُ الكوفة الأول(أبو الطيب المتنبي) ، فكانه ، وهو يقول فيه :

تحدى الموت واختزل الزمانا فتًى لوّى من الزمن العِنانا
فتًى خبط الدُّنا والناس طُـرًّا وإلى أن يكـونَـهما فـكانا
ويا ابن الكوفة الحمراء وشى بها سمط الـلالئ والجُمانا

ويقول عن نفسه :

أنا ابن كوفتك الحمراء لي طَنَبٌ بها وإن طاح من أركانه عَمَدُ

وأفصح الجواهري عن تعلقه بالمتنبي فقال : (وجدتني وأنا صغيرُ السِّنِّ ،وكأنني أريد هذه المرة التعرف على أيّ بقعةٍ من (حيِّ كندة) في الكوفة كان مولد هذا العبقري)[١١].

ب القصيدة :

نظم الشاعر قصيدته سنة 1951م، هادفًا إلى إيقاظ الشعب المظلوم للثورة من خلال تصوير معاناته ،وبؤسه وحرمانه ،بأسلوب ساخر لاذع ،انتظم القصيدة من أوّلها إلى آخرها ـ تقريبًا ـ .

ولما كان موضوع القصيدة محنة الجماهير ـ بما تحسه وبما تعيشه وبما تتطلع إليه ـ كان الشاعر جديرًا بذلك الاختيار ،لما قدمناه أنه كان هاجسُه الأول الناسَ،والحرية،والتقدم والعدل ، فكانت تنويمة الجياع من بين قصائد كثيرة للشاعر توافقها في الفكرة وتخالفها في الأسلوب ، توكّد توق الشاعر إلى الحياة التي تحياها الشعوب الكريمة ، وأرى أن من كان هذا منهجه ـ وقد امتلك أسبابًا أخر ـ يكون الخلود نصيبه ،وهذا ما كان لأبي الفرات بلا خلاف،ولا منازع ،وقد امتلأت الساحة الأدبية بمئات الشعراء ،ومثلهم النقاد ،ومثلهم الحساد ، بل قل المناوئون ،لكنّ الجواهري حلّق بإنسانيته ،وبعطائه ،وبفكره المبدع الخلاق ليكون المتنبي الثاني وزيادة .

لا أريد تفصيل القول فيما يتعلق بالقصيدة ؛ لأنها ستكون محور البحث ـ بعون الله وتوفيقه ـ ولكن من نافلة القول إنّنا لنجد أفكار القصيدة كانت ـ وما زالت ،وستبقى ـ ناطقةً بصدقٍ ،وبموضوعية عمّا يعانيه الفقراء من جور الطغاة ،وهذا هو الأدب الحيُّ الخالد .

المبحث الثاني

أُسلوب القصيدة

1- تخذ الشاعر السخرية أسلوبًا ـ هنا ـ ، فقدم أفكاره بهذا الأسلوب الذي انتظم القصيدة كلها ـ تقريبًا ـ .

2- لم يُفصِح الشاعر عن مشاعره الخاصّة ، وأحاسيسه صراحة ، أي : لم يُعلن مباشرة موقفه مما طرحه ، فأنت لا تجد أيَّ ضميرٍ للمتكلم الظاهر ،و لا المستتر ـ بالإسناد ـ ، بل إنّ ذلك بَيِّنٌ مما قدّمه من أفكار عن الجياع وبؤسهم ، وما يُكال لهم من وعود كاذبة ، فهو تكلم باسمهم ، مصورًا دقائق حالهم ، وكأن ذاته منصهرةٌ فيمن تحدّث عنهم بمرارة ،وحرارةٍ غير مباشرة ، ولو لم يكن الشاعر قد أحسّ ما كان يُكابده الجياع ، وأنّه عاش مِحَنَهم ، لما تأتت إليه هذه الصورُ المجسّدةُ بصدق تلك المعاناة ، وذاك الابتلاء .

3- لقد جاءت أبيات الشاعر مناسبة سهلةً في نطقها ،عفوية في طرح أفكارها ، وقد انتظمت السلاسةُ تسلسلها، وكأن الشاعر قد دخل قلوب الناس ،وتغلغل في أعماق نفوسهم ،وهو لم يُعمل فكره في البحث عن مفرداته ، ولا مضامينه ، بل جاءته طيِّعة ، تعبّر عمّا يريد ، وهذا لعمري الأدب الذي يُقال فيه (السهل الممتنع) .

وأحسب أن موضوع القصيدة ، وأصحابها وراء هذه العفوية والسهولة ، واليسر في الطرح والأسلوب .

4- ولما كان الجياعُ ـ وهم جلُّ الشعب ـ قضيّةَ الشاعر الكبرى ، فقد اتخذ أسلوب الخطاب المباشر ، فهو استعمل صيغة الأمر (نامي) مُوَجَّهًا لهؤلاء المحرومين ، مع أسلوب النداء ،وإن حُذِف حرف النداء في (جياع الشعب) ، فالمعنى بتقدير : يا جياع الشعب .

وهذا الأسلوب ينمّ عن تحفيز لذات المتلقي في أن يتنبّه لما هو فيه ،ولما يجري حوله ، ولما عليه فعله . 5 ـ استخدم الشاعر المعاني الإسلامية ،والألفاظ القرآنية ، وهذا يدلّ على تأثر الشاعر بجو مدينه الديني، فرصّع قصيدته بما كان قد اختزنه في حافظته ،ووشّاها مما اقتبسه من القرآن الكريم ، نحو قوله :

نامي يُساقَطُ رزقك الموعو ... دُ فوقَكِ بانتظـــــام[١٢]

وقوله : نامي تَطُف حور الجنـــــان ... عليكِ منها بالمـــــُدام [١٣]

وقوله : نامي إلى يوم النشـــــــور ... ويومَ يؤذن بالقيـــــام[١٤]

وقوله : وتَعَوَّضي عن كل ذلـــــك ... بالسجود وبالقيـــــام[١٥]

6 ـ نوّع الجواهري في الأساليب التي استخدمها في إيصال أفكاره ،فناسب بذلك التنوّعِ تنوّعَ الأفكار ،وقد حلّق في ذلك التنويع ، ونمّ ذلك عن دراية واسعة باللغة ،وامتلاكه

ناصيتها ،من حيث إنّ لغتَنا ثريةٌ بالألفاظ المُعبّرة عن المعنى المُراد بدقةٍ ،وغنيّةٌ بالتراكيب الموحية بالدلالات الكثيرة التي يمكن للتعبير احتواؤها ، فضلاً عما للشاعر من باع طويل وغزير في البلاغة وفنونها ، فاستخدم أسلوب الطلب كثيرًا ،ونوّع في جوابه ،ففي مطلع القصيدة طلب من الجياع النوم ،وقدّم مسوِّغًا لذلك بجملة فعليّة مفيدة الدعاء ،وفي أعلى تركيب بلاغي مُعبِّر ،يقول :

نامي جياع الشعب نامـــي حرستك آلهة الطعـامِ

وقوله : نامي فقد أضفى ((العـ ـراءُ)) عليكِ أثوابَ الغرامِ

وقوله :نامي فقد أنهى ((مُجيـ ـعُ الشعبِ)) أَيَّامَ الصيامِ

وأخبر بالجملة الاسمية تعليلاً لطلب النوم ، نحو قولِه :

نامي جياع الشعب نامـــي اَلفجـر آذَنَ بآنصـــــرامِ

والشمسُ لن تُؤذيـــــــكِ بعدُ بما توهَّج من ضرامِ

والنورُ لن ((يُعمي!)) جفونًـا قد جُبِلنَ على الظـــلامِ

أو التعليل بجملة الشرط ، نحو قوله :

نامي فإنْ لم تشبعـــــي من يقظةٍ فمن المنـــامِ

أو تعليل الطلب بجوابه ، وبجملة المدح بعده ، نحو قوله :

نامي تصِحّي ! نِعمَ نـــومُ المرءِ في الكُرَبِ الجِسامِ

7- اقتراب لغة الشاعر من المتداول اليومي ، - الشعبي - ، ولكنه فصيح ، وقد يطلق عليه بعضهم لغة الجرائد، فإنه استعان بالألفاظ المتباينة من حيث ترتيبها في منزلتها من حيث كثرة الاستعمال (حتى تقرب من العامية) ، وبين الألفاظ العالية في الاستعمال اللغوي الأسلوبي ، (إنّ اللغة لدى الجواهري هي اللغة بتاريخها الطويل ، وبتراثها كله ، وهي أداته الجديرة بالاصطباغ بدماء العصور كلها ، فاللفظة عنده لا تنتمي لعصر دون آخر ، بل هي اللفظة التي تبقى حيَّةً في خيالة الخصب) ([١٦]) . وإن الأبيات التي استشهدنا بها لهي أدل على هذه الميزة لدى الشاعر .

8 –وظّف الشاعر بعض الأمثال لإيصال فكرته ، أو معنى الأمثال ، أو الموروث الفكري الشعبي ، نحو قوله :

نامي تصِحّي !نعمَ نومُ المرء في الكُربِ الجسام

وقوله : نامي ولا تتجادلـــــي القولُ ما قالت (حَذامِ)

وقوله : والنّور لن يُعمِي جفونا قد جُبِلْنَ على الظلامِ

الشمس لن تؤذيك بعدُ بمَا توهّجِ مـــــن ضرامِ

9- أحسن الشاعر في اختياره بحر الكامل ليقدم من خلاله ما اعتلج في داخله من مشاعر وأحاسيس ، لما في هذا الوزن من إيقاع ناسب فكرة القصيدة ، فانسابت التعبيرات توقع لحنًا ساهم في التأثير في المتلقي ؛ لأن هذا البحر (كثير الإغراء ، وافر الإيقاع ، يستجيب بطواعيّةٍ لدواعي النفس ، وألوان الفكر ، شاع بنسبةٍ كبيرةٍ لدى الشُّعراء القُدماء ، واستخدمه كذلك شعراء العصر الحديث ، ونظموا فيه قصائد شهيرة ، ولا سيما في المجزوء منه ، الذي استغل أحسن لأغراض مختلفة) ([١٧]) .

وأحسن الشاعر كذلك في اختياره حرف الميم ، المكسورة ، المؤسَّس([١٨]) لها بحرف المد (الألف) ، رويًّا لقافيته ، وكأنه يبغي أمرين ، الأول : شدّ المتلقي مباشرةً الى التنبّه ، والتيقّظ ، وليلهب الحماس ، وهذا يمكن تلمّسه من بحر الكامل وألفاظ القصيدة ومعانيها ، وقافيتها جميعًا .

الثاني : الهدوء الذي قصدَه الشاعر في تعبيراته ، لا على وجه الحقيقة ، لكن ليناسب الأفكار الظاهرة المستفادة من ظاهر الألفاظ ، والتراكيب نحو طلب النوم ، وغيره ، وفي هذا تناغم بين صوت الميم ، والمعنى البارز من دونما بحث فيما تحت اللفظ ، وليس ما أراد الشاعر من وراء تعبيراته ، ولقد راعى الشاعر في قافيته امتداد الصوت المتأتي من مجموع حروف قافية القصيدة .

ولكنّ ألفاظ القصيدة – على الرغم من اقترابها من الاستعمال اليومي للناس – لم نجد فيها لحنًا ، ولا غلطًا في الصيغ ، ولا إسفافًا في الاستعمال ، ولما كان الشعر يحسب على الشعراء القدماء (الكلاسيك) فهو ممن عُرِف بُقوة السبك في العبارات ، فنلحظ أن استعمل الألفاظ الصعبة – على قلّتها – في أبيات القصيدة ، نحو قوله : نامي على مهدِ الأذى وتوسّدي خَدَّ الرُّغام

فاستعمل (الرُّغام) الذي معناه : التراب . وربما قصد به القسر ، من (رغم أنفه) ([١٩]) .

وقوله : نامي ..غدٌ يسقيكِ من عَسَلٍ وخمرٍ ألفُ جامِ

فاستعمل لفظ (جام) ، وقصد به هنا الإناء المستعمل للشَّراب والطَعام[٢٠].

وقوله : لم تُبق من (نُقلٍ) يسُّرَكِ لم تجِئه .. ومن أدام .

فلفظ (نُقل) وهي الفواكه ، ولاسيما التي تُحضر مع الخمرةِ للشاربين . وقد يُراد به ما يُنقل من كلام (وعود) ، أو (أعيان) ([٢١]) .

وقوله : الواحِمين ومِن دمائك يرتوي شرَهُ الوِحام

فـ(الواحِمين) جمع (وَحِمٌ) ؛ الذي أفرطته شهوته في شيء وقصد به هنا المولعون حدّ الشراهة في دم الشعوب([٢٢]).

وقوله : ولأنتِ أجَوجُ بعدَ أتعابِ الرضوخ الى جِمامِ ([٢٣])

فاستعمل كلمة (جمام) ، التي تدل على كثير ، وقصد بها الراحَة التامة من هدوء وسكون . وربما ثمّة ألفاظ أُخر قد يُرى فيها شيء من الصعوبة .

وقوله : نامي يُرَح بمنامِك الزُّعماءُ من داءٍ عُقام

فاستعمل كلمة (عُقام) قصد بذلك الداء الذي لا يبرأ منهُ ([٢٤]) .

وقوله : نامي على جيشٍ من الآلام مُحتشدٍ لُهام

فمعنى (لُهام) الجيش العظيم ، كأنه يَلتهم كل شيء ([٢٥]) .

المبحث الثالث

أفكار القصيدة

إنّ فكرة القصيدة تعبّر عن البلاء الذي حلّ بشعب الشاعر ، إنه ظُلم في جوانب الحياة كلّها ، وللشعب كلّه ، وقد استطاع الشاعر أن يُوَظِّف خزينه اللغوي ، وتجربته الحياتية التي تنطلق من الواقع المرّ ، وكون الشاعر تلوّن عمله من موظف حكومي ، الى صحفي – كاتبًا أو رئيس تحرير - ، الى إنسان يحسّ بعمق ما يتجسد في حياة أهله ، كل هذه وغيرها ساهمت في منح الشاعر البراعة في تقديم صور مختلفة للظلم الذي فرضه الحكام الطغاة على الناس ، فأنت تلحظ مثلاً:

١. طلب النوم كي يشبَعُ الشعبُ الجائعُ من النوم ، لا من الطعام .
٢. طلب النوم كي يشبع الشعب من الرغيف ، لكن بالأحلام .....
٣. طلب النوم كي يشبع الشعب لغرض تمام صحته وعافيته .
٤. طلب النوم ولكن في وخز للظالمين ، إذ النوم سيكون على أنغام صوت البعوض .....
٥. طلب النوم من أجل أن تبقى الأفواه مكمومةً (حرية الفكر).....
٦. طلب النوم لخطب الطغاة الكاذبة بوعودهم بالرزق ، فكأنها مواعيد عرقوب
٧. إفادة الشاعر من التراث الشعبي ، نحو قوله :

الشمس لن تؤذيك بعدُ بما توهّج من ضرام

وقوله : النورُ لن يُعمـي جفونًا قد جُبِلن على الظــلام

وقوله : نامي جياع الشعب نامي النَّوم من نِعم الســلام

1- قدّم الشاعرُ مُسَوِّغَ طَلَبِهِ من الجياعَ النوم ،وهذه الدعوةَ قَد تكررت ،فعمّت القصيدة كلّها– بسخرية لاذعة ، فكانت النتائج التي آلَ إليها كل طلب أفكارًا مقصودةً منها إيقاظ الشعب ، لأنّ المآل المترتب على النوم هو ما يدور في عقل المتسلطين ، ونفوسِهِم ، وما يرغبون فيه ، وما يقتلون الجياعَ لبلوغِه ، في غاياتٍ باطلةٍ ، وأقاويل زائفة ، وواضح أنّ ذلك لا يُريده الشاعر حقيقةً ،نحو قوله :

نامي فإنّ الوحدةَ العصماء تطلبُ أن تنامي

وقوله : نامِي فإنّ صلاحَ أمسٍ فاسدٍ في أن تنامي

وقوله : نامي جياعَ الشعبِ نامي لا تقطعي رزقَ الأنامِ

لا تقطعي رزق المُتاجِـ رِ والمُهندِس والمحامي

نامي تُريحي الحاكمين من اشتباكٍ والتحامِ

نامي تُوَقَّ بكِ الصحافةُ من شكوكٍ واتهامِ

يَحمدْ لكِ القانونُ صُنْعَ مطاوِعٍ سلسِ الخُطامِ

لم يستطع الشاعر كتمان حبّه ، وإعظامه لشعبه ، فراح يُفصِحُ عن جواهرِ هذا الشعب الأبي :

نامي شَذاةُ الطُّهر نامي يا دُرَّةً بيـن الرُّكـــامِ
يا نبتةُ البلـوى ويـا وردًا ترعـرع في اهتضـام

إلى أن يقول :

نامي إليك تحيَّتـــي وعليكِ نائمةً سلامـــــي

2- ودُّ الشاعر للجياع وإظهاره معاناتهم ، وأساه لذلك ، وقد تخللت هذه الفكرة معظم أبيات القصيدة ، ولا يخلو كل بيت من أسلوب السخرية ، وقد جاء إعظام الشاعر للجياع بصورتين :

الأولي : إظهاره بؤس الجياع وحرمانهم ،وما وقع عليهم من جور وحيف ،نحو قوله :

نامي فإن لم تشبعي من يقظةٍ فمن المنام

وقوله : نامي على المستنقعات تموجُ باللجج الطوامي

وقوله : نامي غدٌ يسقيكِ من عسلٍ وخمرٍ ألفَ جامِ

وقوله : نامي فما الدُّنيا سوى جسرٍ على نكدٍ مُقامِ

وقوله : نامي على جَوْرٍ كما حُمِلَ الرّضيعُ على الفِطامِ

والثاني : إعظامه هؤلاء الجياع كونهم الدر النقي من البشر ،وأنهم مثال الصبر ،وأنهم جذوة النور،وأنهم الصورة الأعلى التي صوّرها الله في التحمّل ،ومواجهة الخطوب ،نحو قوله :

نامي شَذاة الطُّهر نامي يا دُرّةً بينَ الرُّكـــامِ

إلى غير ذلك من أبيات .

3- النصائح أو الحِكَم المقدمة بأسلوب السخرية ، وربما الاستهزاء ، فقد مزج الشاعر فكرة النصيحة بما يتداوله الناس من تعبيرات قد تكون مما جرى على ألسنتهم، فصاغها بأسلوب ساخر ، نحو قوله :

نامي على زُبَدِ الوعود يُدافُ في عَسَلِ الكلامِ

وقوله : نامي تَصحِّي ! نِعمَ نومُ المرءِ في الكُرَبِ الجسام

وقوله : والشّمسُ لن تؤذيك بعدُ بما توهّج من ضرامِ

وقوله : نامي فكفُّ الله تغسـ لُ عنكِ أدران السّقامِ

وقوله : نامي فنومكِ فِتنةٌ إيقاظُها شَرُّ الأثامِ

على الرغم من سيطرة السخرية ، والتلوين بين الصور المتناقضة ، نلمح حقائق ، وحِكمًا صاغها الشاعر ، نحو قولّه :

نامي فجدران السجـــــون تعجـُّ بالمـــــــــوت الزؤامِ

ونحو قوله : نامي على جَوْرٍ كمـــــــــا حُمِلَ الرضيــعُ على الفطــامِ

ونحو قوله : نامي جياع الشعب نامـــــي النَّومُ أرعــى للذِّمـــــــــامِ

4- عمّت القصيدة أحاسيس الشاعر غير المعلنة ،من خلال سخريته ، فأذكى النهوض في قلوب الجياع ، ولكن بأسلوب هادئٍ غير معهود بما عُرِف عنه في معظم قصائده التي كانت تطفح بمشاعر الثورة ، والحث على التغيير بعنف ، وأبيات القصيدة كلّها تنمُّ عن هذه الروح ، ومسوّغ ذلك – فيما أحسب – هو موضوع القصيدة الذي منه : الجوع ، والحرمان ، والذل ، والمرض ، والسجن ومصادرة الحريات ، ولا سيّما حرية الفكر ، وجعل الأمة في حالة استكانة دائمة ، بل الإحباط واليأس والقنوط في نيل أيّ حقٍّ من حقوق الحياة ، والحرمان من أيسر تلك الحقوق ، نحو قوله :

نامي على حُمَةِ القنا نامي على حدِّ الحُسامِ

وقوله : نامي غدٌ يسقيكِ مِن عسلٍ وخمرٍ ألفَ جامِ

أجرَ الذليلِ ، وبردَ أفئدةٍ الى العليا ظوامي

وقوله : نامي يُساقَطَ رزقُكِ الموعو دُ فوقَكِ بانتظام

5- فكرة حقّ الحكم الإلهي ، وأنه نصيب فئة من البشر ، بلا منازع ، وهو يُقدمّها بأسلوب ساخر ، وبيان أن هذا الرأي ممجوج مرفوض على وفق القوانين السماوية ،والوضعية، نحو قوله :

أعطي القيادة للقضاءِ وحِكّمِيه في الزِّمامِ

واستسلمي للحادِثاتِ المُشفقاتِ على النيامِ

وقوله : خلِّ الهُمامَ بفضلِ نو مكِ يتّقي شرَّ الهُمامِ

وتجنبّي الشَّبُهاتِ في وعيٍ سيوصَمُ باجترامِ

6- الوعود الكثيرة الكاذبة الزائفة ، ومزاعم لا حقيقة لها ، ومع ذلك يصورها الشاعر وكأنها مِنح من الحقوق من لدن الحكام الطغاة الظالمين للجياع ، وبأسلوب السخرية نفسه ، فهو يقول :

نامي على الخُطَبِ الطِوالِ مِن الغطارِفةِ العِظامِ

ونحو قوله : نامي على تلك الغُرِّ من ذاك الإمام

يُوصيك أن لا تطعمـي من مال ربِّك في حطـام
يُوصيك أن تَدَعي المباهج واللـذائـذَ لِـلئـــــام

ولم يدع الشاعر تلك الدعوات التي ذكرها على لسان الطغاة إلا وقدّم الجزاء على تحملهم ـ وبحسب عقول أولئك المتسلّطين ـ فقال :

وتَعَوَّضِي عن كلِّ ذلـك بالسّجودِ وبالقيـــامِ

7ـ فكرة التعلل بالغيب ، وأنّ جوعهم ومآسيهم وبلاءَهم سيزول بطاقات غيبيّة ، ولكن بأسلوب السخرية ، لأنها أفكار لا صحة لها ، ولا يحكيها واقع الأمم ، بل حقوق الشعوب ـ كما هو معروف ـ تؤخذ بالنضال والتضحيات لا بأحلام النيامِ ، نحو قوله :

نامي فكف الله تغســـل عنك أدرانَ السّقـــــــــــــــامِ
نامي فحرزُ المؤمنين يَذُ بُّ عنكِ على الدّوام

وقوله : نامي تَطَف حورُ الجنان عليك منها بالمُدام

8ـ فكرة ترك قيادة الأمة ، وشؤونها كافة لمن امتلكوا ذلك الحق ، أيًّا كانت مسوّغات هذا التسلط ،ومن دونما نقاش ، نحو قوله :

وقوله : نامي يُرَحْ بمنامِكِ الزّعماءُ من داءٍ عُقامِ

9ـ نُصحُ الشاعر الجياعَ أن يتركوا أمرهم ويكلوه إلى من يتصدَّى للدفاعِ عنهم ونيل حقوقهم بسخريةٍ لا حقيقة ، نحو قوله :

نامي وخَلّي الناهضين لِوَحْدِهم هدفَ الروامي

نامي وخَلّي اللائمين فما يُضُرُّكِ أن تلامي

نامي فحقّك لن يَضيعَ ولستِ غُفلاً كالسوامِ

إنّ الرعاة الساهريـــــن سيمنعونك أن تُضامِـــــــي

10 ـ كثيرً ما مال الشاعر إلى تقديم مُسَوِّغٍ لطلبه ،أولأخباره ،فضلا عن تنويعه لتلك العلل من حيث الأسلوب، فمثلا هو علل طَلب النوم بالجملة الشرطية ،ولا ننسى سخريته الواضحة في ذلك :

نامي ، فإن لم تشبعـــــي من يقظةٍ فمن المنـــــام

أو أنّه يقدّم علةً لطلبه نُصحًا طبيًّا ،ويمدح ذلك الفعل ، كي ينجوَ من يقوم بذلك من البلايا ،وهو لم يُرِد الحقيقة ،بل السّخرية ، يقول :

نامي تَصحِّي ، نِعْمَ نـــــومُ المرءِ في الكُرَبِ العظـــــامِ

نـتـائـج الـبـحـث

إنّ من يَلِج عالَمَ الجواهري الشعري لَيَغرقُ في بحره اللُّجِيّ ،حيث تتقاذفه أفكاره ،وتحلِّق فيه أحاسيسه الإنسانية العليا ،وتخلُبُ لبَّه مشاعرُه التي تطفَحُ بالعواطف المنبثقة من تعبيراته الصادقةِ ، المؤدية المعنى بأبلغ صور البيان ، وبأعلى دقةٍ في الدلالة ،ولا سيّما عندما يتحدث عن المحرومين ، وهذا يوثق علاقة الشاعر ويتوهّج مشاعل إضاءة للمحرومين ، يقول في مقصورته :

أَلَحْـتَ بـِشعركَ للـبائـسين بِداجِـي الخـطوبِ بَـريقَ المُـنَى

يقول ميري بصري : (وكان الشاعر مؤمناً بجماهير الشعب ، معبّرًا عن آمالها وآلامها) [٢٦].

وقصيدته (تنويمة الجياع) واحدةٌ من قصائده التي حلّق فيها الشاعر فكرًا،وأسلوبًا ، وجمالاً ، وهو يجسّد جوانبَ من حياة شعبه المريرة ،وقد تَبَيَّنا فيها :

1 ـ مالَ الشاعر ميلا شديدًا إلى السهولة في تعبيراته ، ولا نغالي إذا قلنا : إنّه تحدّث بلغةِ الجياعِ أنفسِهم ، وتداول ألفاظهم ،ونقل ما يدور في خلجات نفوسهم ،ولكن بسخريةٍ لاذعة ، وهذا أعلى درجات الإبلاغ الأدبي .

2 ـ إنّ الشاعر اختار موضوعًا إنسانيًّا ـ وإن كان هذا الموضوعُ قضيةَ الشاعرِ الأولى والكبرى ،وما زال وَكدَ المصلحين ـ وكأنه ماثلٌ أمامنا الساعة يُصوِّرُ بشاعة حرمان شعبه ،بصدق عجيب .وهذا لَعَمْرِي الأدبُ الحيُّ الخالد .

3 ـ حسن استفادة الشاعر مما بَنى به ثقافته ،فوظّف ما استقاه من جو النجف الديني العام ،وما ثقّف به مَلَكَتَه من جو عائلته ،أو بجهده الخاص ، لترصين أسلوبه ،وتحصينه ،وتقديم أفكاره بأبهى الأثواب ،وقد ظهر ذلك جليًّا في معظم ما عبّر به من أساليب ، وما قدّم من أفكار ،ولا سيّما التأثر بالقرآن الكريم .

4 ـ توزّعتِ القصيدةَ الأساليبُ المتنوّعة ،ما بين الطلب والإخبار ،فتجد من الطلب : الأمر ، والنهي ، والاستفهام ،والنداء..أما الإخبار فجاء بالجمل الاسمية ،وكذا بالجمل الفعلية ،ومنها استخدامه لفعل المدح (نعم) ، وفعل الذم(بئس) . وقد قصد الشاعر بهذا التنويعِ والتلوينِ حسنَ مُناسبةِ الأسلوبِ للفكرةِ التي طرحها ،فبلغ المرمى بدقةٍ ما بعدها دقة .

5 ـ على الرغم من أنّ الشاعر عرض أفكاره بسخرية لاذعة ،لكنه لم ينسَ هؤلاء الجياع المحرومين،فخصَّهم بأبياتٍ عدّة ،أعظَمَهم فيها أيّما إعظام ،وأجلّهم أيما إجلال .

6 ـ حسن اختيار الشاعر لوزن القصيدة ،فقد اختار البحر الكامل ؛لما فيه من هدوء ،وإيقاعٍ مناسب لغرض القصيدة ،وأفكارها ،وكذا جاءت قافية الميم المحركة بالكسر لتُطيل انسياب الهدوء الذي يريده الشاعر ـ وإن كان ساخرًا ـ ليتناسب الصوت مع فعل النوم ، وكأنّ الشاعر يهدهد صبيانًا أضناهم الجوع حقًّا ،وبهذا الترنيم يوصلهم إلى النوم ، وإن لم يُرِده الشاعر حقيقةً .

هوامش البحث

1- ملف أصدرته جامعة الموصل احتفاءً بالشاعر الجواهري في1980/2/20م .
2- المجلة الثقافية –الجامعة الأردنية- عدد : 42 ، سنة 1418هـ -1997م / مقال : تأملات في عالم شعري / 98 .
3- من قصيدة للدكتور سعيد الزبيدي ، ألقاها بمناسبة احتفاء جامعة الموصل بالشاعر في1980/2/20م .
4- المجلة الثقافية / 100.
5- أعلام الأدب العراقي الحديث 1-182 .
6- المجلة الثقافية / 130 .
7- ذكرياتي 53/1 .
8- ذكرياتي 1/ 70 .
9- ذكر الشاعر كثيرًا من ذلك في مذكراته ،بل إنّ كثيرًا من قصائده سجلت ذلك في مناسبات شتّى .
10- ذكرياتي14/1. ومن أبياته المعَبّرة عن ألمه وألم الناس قوله :
عرفتنا الآلام لونًا ، لونا وأرتنا الممات ساعًا ، فساعا : من قصيدة :(الدم يتكلم).
11- ذكرياتي37/1.
12- قال تعالى : (وهُزِّي إليك بجذع النخلةِ تُسَاقِطْ عليكِ رُطَبًا جَنِيًّا) [مريم : 25] . ينظر : المعجم المُفهرس لألفاظ القرآن الكريم /356 ،مادة (سقط) .
13- .جمع الشاعر بين فكرة طواف الولدان المُخَلّدين ، وصفة الحور العين ،مُستفيدًا مما ورد من ذلك في القرآن الكريم ، نحو قوله تعالى : (وحُورٌ عِيْنٌ) [الواقعة : 22] ، ينظر :المعجم المُفهرس لألفاظ القرآن الكريم /227 ،مادة (حور) ،وقوله تعالى : (ويَطوفُ عَليهِم غِلمانٌ لهم) [الطور : 24] ،ينظر :المعجم المُفهرس لألفاظ القرآن الكريم /433 - 434 ،مادة (طوف) ، وآيات أُخَر كثيرة.
14- .وظّف الشاعر فكرة الصبر حتى يوم الحساب لنيل الجزاء على ما يُبتَلى به الإنسان ،نحو قوله تعالى : (وإليه النُّشُور) [الملك: 15] . وقوله تعالى : (فَيُوَفِّيَهِم أجورَهم) [آل عمران : 57] .ينظر : المعجم المُفهرس لألفاظ القرآن الكريم /706 ، مادة (نشر) .وصـ 760 ،مادة (وفى) .
15- والسجود والقيام مفهوم إسلاميّ يُشير إلى الصلاة ،وقد ورد من مادة (سجد) و(قوم) في القرآن الكريم بصيغ مختلفة كثير نحو قوله تعالى : (وطَهِّر بيتيَ للطائفين والقائمين والركَّعِ الجودِ) [الحج : 26] ،ينظر: المعجم المُفهرس لألفاظ القرآن الكريم /349 ،مادة :سجد .وصـ 582 ،وما بعدها في مادة :قوم .
16- لغة الشعر عند الجواهري / 178 .
17- المعجم المفصل في اللغة والأدب 302/1 ، ونقل عن مقدمة (الإلياذة) الآتي : (وقد أحسنوا بتسميته كاملاً ؛ لأنَّهُ يَصلُح لكلّ نوع من أنواع الشعر ، ولهذا كان كثيرًا في كلام العرب المتقدمين والمتأخرين ، وهو أجود في الخبر منه في الإنشاء ، وأقرب الى الشدّة منه الى الرِّقة) .
18- ينظر : المعجم المفصل في اللغة والأدب 970/2 .
19- ينظر : مجمل اللغة / 256 مادة (رغم) ، ولسان العرب 188/4 ، مادة رغم .
20- ينظر : لسان العرب 269/2 مادة (جوم) .
[٢١] ينظر : لسان العرب 683/8 ، وما بعدها مادة (نقل) .
21- ينظر : مجمل اللغة / 293 . مادة (وحم) . ولسان العرب 242/9 مادة (وحم) .
22- ينظر : مجمل اللغة / 93 ، مادة (جم) . ولسان العرب 210/2 ، وما بعدها ، مادة (جمّ) .
23- ينظر : لسان العرب 377/6 ، وما بعدها ، مادة (عقم) .
24- ينظر : مجمل اللغة / 586 ، مادة (لهم) . ولسان العرب 144/8 ، وما بعدها ، مادة (لهم) .
25- أعلام الأدب في العراق الحديث /182 .

المراجع والمصادر

القرآن الكريم

1 ـ أعلام الأدب في العراق الحديث ـ مير بصري ـ دار الحكمة -1415هـ ـ 1994م .
2ـ التمرد الاجتماعي والفني في شعر الجواهري ـ جلال عبد الله خلف .
3ـ الجواهري في جامعة الموصل ـ كلمات ومختارات ـ من منشورات المركز الثقافي الاجتماعي لجامعة الموصل ـ جمعه وحققه وأشرف على طبعه عبد الرضا علي وسعيد جاسم الزبيدي -20 /2 /1980 م.
4ـ ديوان الجواهري ـ محمد مهدي الجواهري ـ ط5 ـ لم يُذكر مكان الطبعة ،ولا سنتها ، غير أنّ المقدمة التي قدّم الشاعر بها ديوانه جاءت موقّعة بخطه ،وفيها :بغداد7 شباط 1961م .
5 ـ ذكرياتي ـ محمد مهدي الجواهري ـ ط1 ـ دار الرافدين ـ دمشق 1988م .
6 ـ لغة الشعر عند الجواهري – د. علي ناصر غالب – ط1 – بغداد – 1411هـ -1990م .
7- لسان العرب – ابن منظور (ت711هـ) –ط1 – دار الحديث- القاهرة 1423هـ - 2003م.
8- مجمل اللغة – أبو الحسين أحمد بن فارس (ت395هـ) – راجعه ودقق أصوله : محمد طعمة – ط1- دار إحياء التراث العربي – بيروت- لبنان 1426هـ - 2005م .
8- المعجم المفصل في اللغة والأدب – د. ميشال عاصي ، ود. أميل بديع يعقوب –ط1 – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان 1987م .
9ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ ط1 ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان 1420هـ ـ 1999م .

الدوريات

1 ـ المجلة الثقافية ـ الجامعة الأردنية ـ (عدد ممتاز برقم 42) ، ربيع الثاني ـ رجب 1418هـ ـ آب ـ تشرين الثاني 1997م .